المصدر: العربى
التاريخ: ٢٠٠٢/١/٢٠

جلال أمين يفحص سياسته
التى أدت إلى مظاهرات الطعام

التحليل النفسى للسادات

■ كان الرئيس الأوحد فى العالم الذى وصف شعبه بـ «الحرامية»

■ وصفه للمعارضين بالحقد محاولة لا شعورية لنفى الصفة عن نفسه

■ لديه شعور دفين بالنقص إزاء كل ما هو أجنبى ■ كان مفتونا بالحياة الأمريكية وبالحياة الارستقراطية لشاه إيران ■ خلط بين النوازع الشخصية للحاكم والسياسة العامة للدولة وترك المال العام نهبا للأطماع الخاصة ■ كون علاقات وثيقة بالشخصيات التى اشتهرت بالشطارة والفهلوة ■ كان يفسر كل معارضة له على أنها حقد شخصى

لست من أنصار التفسير النفسى للتاريخ ولكن من المؤكد أنه لا يصح أن نتجاهل أثر الخصائص النفسية والنزعات الشخصية للحاكم على ما يجرى من أحداث. فمن المؤكد مثلا أن هذه الخصائص يمكن أن تؤثر على مجرى الأحداث فى المدى القصير، وأن تكون عاملا مساعدا أو معطلا، ولو لفترة من الوقت، للتطور الذى تفرضه الظروف الاجتماعية أو الضغوط الخارجية.

والذى يتأمل عصر السادات لا يمكن أن يتجاهل أن الخصائص النفسية للحاكم قد كان لها بالفعل مثل هذا الأثر، الذى قد يندر أن تجد مثيلا له فى تاريخ مصر الحديث. صحيح أن تاريخ مصر قد تأثر بقوة شكيمة محمد على ورخاوة سعيد، وجبن توفيق، وعناد عبد الناصر ولكن قد يميل المرء إلى أن يرى فى شخصية أنور السادات نموذجا يفوق كل هذه النماذج فى مدى ما مارسته من أثر على السياسة الداخلية والخارجية لمصر فى السبعينيات والذى يبدو لى أن هذه النزعات الشخصية كانت ذا أثر

قوى للغاية على مفهوم الانفتاح الذى ساد فى هذه الفترة، وعلى علاقات مصر الخارجية والعربية، بما فى ذلك موقفها من إسرائيل وسوف أحاول فيما يلى التدليل على ذلك.

من اكثر الكلمات ترددا على لسان الرئيس

السابق كلمة «الحقد». فهو دائب على استخدامها فى وصف المعارضة السياسية. ويتصور أن الخلاف بينهم وبينه لا يزيد على شعور بالبغضاء الناتج من الغيرة والحسد. وأعتقد انه فى هذا كله كان يعبر بصدق عن حقيقة مشاعره. فهو من ناحية سعيد غاية السعادة بما وصل إليه من مجد وجاه، ولا يتصور أن هذا الذى وصل إليه لا يمثل أيضا طموح غيره من المشتغلين بالسياسة أو العمل العام.

على أننا نلاحظ فى الوقت نفسه مدى حرص أنور السادات على نفى صفة الحقد عن نفسه. اقرأ مثلا الصفحات التى كتبها فى كتاب «البحث عن الذات» عن شعوره نحو زملائه الأثرياء فى المدرسة الثانوية:

«فى المدرسة الثانوية تفتحت عيناى لأول مرة على أهل المدينة. وعرفت معنى الطبقة والفوارق. ففى المدرسة كان معى ابن وزير الحربية وابن وكيل وزارة المعارف، وكان كل منهما ينتقل إلى المدرسة ويعود منها إلى البيت فى سيارة فاخرة، (كونبيل) كما كنا نسميها فى القرية. منظر مبهر للغاية، ولكنه لم يترك فى نفسى أى اثر للغيرة أو الحقد. وطبعا زملائى فى الفصل كانت ملابسهم أفضل من ملابسى، ولكن هذا لم يصبنى بأى عقدة».

فمنظر السيارة الفاخرة كان منظرا «مبهرا للغاية» ولكنه مع ذلك «لم يترك فى نفسه أى أثر للغيرة أو الحقد». ومع ذلك فهو يذكر بعد صفحتين فقط أنه:

«عندما تقدمت للحصول على شهادة إتمام الدراسة الثانوية كان علينا أن نرفق بالاستمارة صورة شخصية.. وكان لهذه الصورة أهمية خاصة فى نظر أى طالب (؟!) فشهادة التوجيهية هى بطبيعة الحال نقطة تحول فى حياته، ولذلك ذهبت إلى والدى وطلبت منه حلة جديدة أتصور بها هذه الصورة التاريخية.. وأدرك والدى أهمية مطلبى ولكنه قال: أمهلنى يومين أو يمين لأدبر المبلغ».

فى الموضوع نفسه يقول أيضا:

«كان مصروف يدى مليمين فى اليوم، كنت

أشتري كوبا من الشاى باللبن وأشربه وأنا أحس أنى أسعد إنسان فى العالم (؟)، فى حين كنت أرى زملائى من حولى يشترون أفخر أنواع الشيكولاتة والحلوى من كانتين المدرسة».

فهو حريص على تأكيد أن ضآلة مصروفه بالمقارنة بزملائه لم تمنعه من أن يكون «أسعد إنسان فى العالم»، وهو أمر غريب من طفل لفت نظره بهذه القوة الفارق بينه وبين زملائه ولا يمكن أن يقرأ أحد هذه العبارات دون أن يتذكر كيف أصبح أنور السادات، وهو رئيس الجمهورية، حريصا كل هذا الحرص على «الأناقة وتغيير الثياب»، وكيف كان للصور المختلفة أهمية خاصة فى نظره، وكيف كان يعتبر من أمجاد عهده دخول مختلف السلع الكمالية إلى مصر حتى غزت الأسواق «أفخر أنواع الشيكولاتة والحلوى». ولكنه ينفى فى كتابه نفيا قاطعا أى شعور بالغيرة والحسد، ويستخدم فى ذلك كلمة «إطلاقا» كما فى هذه العبارة:

«كان لى أصدقاء كثيرون من أولاد الذوات (وهو أمر يسترعى الانتباه فى ذاته) وكانوا يعيشون فى بيوت فخمة لم أرها من قبل، ولكننى لا أذكر أننى تطلعت يوما إلى ما هم فيه «إطلاقا».

الأمر الذى يذكر بكثرة استخدامه لهذه الكلمة القاطعة «إطلاقا» فى خطبه السياسية بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية، وقد يلقى عليه ضوءا جديدا وكثرة استخدامه لها تذكر أيضا بكثرة ترحّمه على الرئيس السابق عليه، وبكثرة استخدامه لوصف «ابنى وبنتى» فى إشارته إلى أبناء جمال عبد الناصر.

إنى أرى إذن فى تكرار وصفه للمعارضة (بالحقد) أكثر من مجرد تعبير عن تصوره الخاص لدوافع المعارضة، ففيه أيضا محاولة لا شعورية، معقدة وملتوية، لنفى هذه الصفة عن نفسه. كما أرى لتمجيده المستمر «لأخلاق القرية» سببا معقدا بدوره. فشعور أنور السادات الحقيقى نحو القرية هو شعور سلبى تماما، بعكس ما توحى به كلماته. حقا أنه كثيرا ما يرتدى زيا شبيها بالزى القروى، دائب

الذهاب والعودة من وإلى (ميت أبو الكوم)، ويطلق اسمها على أول قرية يبنيها فى سيناء. وما أكثر إشاراته إلى العادات القروية المقرونة بالثناء!.. ولكن فلنلاحظ مع ذلك عدة أمور، منها أن «الزى القروى» الذى كان يرتديه كان أبعد ما يكون عن البساطة والخشونة والذين زاروه فى منزله فى قريته يخبروننا عن التغير الكامل الذى حدث فى أثاثه. ومنها أيضا أن إعجابه بمظاهر المدينة الحديثة لم يكن ليقف عند حد، من واقع تصرفاته وأحاديثه نفسها. ومنها حرصه على بعض مظاهر السلوك البسيطة فى ذاتها ولكنها تعكس إعجابا شديدا بالنقيض التام لبساطة القرية وعاداتها، كتدخينه للبيبة وكثرة ظهورها فى صوره وكثرة ظهوره بالنظارة الشمسية، فضلا عن حرصه الشديد على مراعاة أخر الموضات فى الزى حينما لا يكون فى قريته، وعلى استخدامه للغة الأجنبية حينما يكون استخدام اللغة العربية اليق وأنسب، وحرصه على تأكيد إجادته للغات، وولعه بالتليفزيون والأفلام الأجنبية.. إلخ.

لم تكن إشادة أنور السادات المستمرة بالقرية إذن، نتيجة تقدير حقيقى لها، أو بسبب احترامه الشديد للتراث أو القيم الشعبية، وإنما كانت فى الواقع تأكيدا لانتصاره الشخصى فى كفاح حياته، وكأنه يقول: «هاأنذا انتصرت فى النهاية على من أذلونى فى صباى». كما كانت فى الوقت نفسه محاولة مستمرة لنفى غيرته أو حقده على من يتمتعون بالحياة العصرية، ونشأوا غير نشأته. وفى كتاب «البحث عن الذات» ما قد يرجح هذا التفسير، كالفقرة التى يقول فيها:

«فى الحارة التى كنا نسكن فيها بالقاهرة نزلت مرة لأشترى علبة كبريت من البقال. قلت أنا عاوز علبة كسفريت.. وفجأة انفجر الزبائن بالضحك. اندهشت فيما يضحكون؟.. قالوا لى: «ضرورى تقول كبريت». صممت على «كسفريت».. واستمرت سخريتهم منى..».

على أنه وبالرغم من
هذه الفقرة لا يمكن
أن يثور أى شك عما
كان يثير «الاهتمام»
والإعجاب
الحقيقى لدى
أنور
السادات.
فإعجابه

وافتتانه بالحياة الملكية والارستقراطية لشاه إيران مثلا لا يحتاج إلى دليل، وما شمل به شاه إيران وأسرته من رعاية حينما اصابتهم المحنة لم يكن مصدره فى اعتقادى الشعور بالوفاء أو مجرد رد للجميل، كما كان يطيب له أن يردد، بل كان مصدره فى الأساس علاقة الرجلين بالولايات المتحدة، حتى بعد عزل الشاه، ولكن كان يقوى هذا شعور دفين لدى السادات باحترام الملوكية والأبهة هذا الشعور يؤكده ايضا موقفه من العائلة المالكة المصرية السابقة وحرصه على التودد إليهم بل إن علاقة السادات بالولايات المتحدة نفسها كان يقويها باستمرار عامل شخصى يتعلق بافتتان السادات بالرخاء الأمريكى وبحبوحة الحياة الأمريكية

●●●

لا يمكن أن نتجاهل كل ذلك ونحن نحاول تفسير طبيعة «الانفتاح الاقتصادى» الذى ساد مصر السبعينيات، إذ أن من الممكن مثلا أن نتصور انفتاحا اقتصاديا لا يبلغ تلك الدرجة من التساهل مع المنتفعين به بالحق أو بالباطل. كان من المتصور مثلا أن يطلق عقال النشاط الخاص فى قطاعات كان محروما من الدخول فيها دون أن يسمح بتلك الدرجة من التهرب الضريبى. وكان من الممكن تصور أن تخفض الرسوم الجمركية على الواردات دون أن يسمح بالمساس ببعض شركات القطاع العام، كما كان من الممكن أن نتصور محاولة لتشجيع الاستثمارات الأجنبية دون الرضوخ لمطلب المستثمرين بما فى ذلك الأفاقون منهم.. إلخ

فى كل هذا كانت شخصية السادات ذات أثر لا يستهان به فهو يبدأ التعامل مع الرأسمالى

الثرى على الأخص إذا كان اجنبيا، من مركز نفسى ضعيف ابتداء، ومن شعور دفين بالقصور إزاء الأجنبى فى أمور بالغة الأهمية فى نظره، بسبب حرمانه منها فى صباه وقد انعكس هذا الشعور بكل أسف على تقييمه للأمة التى يمثلها.

لا يدخل ذلك فى رايى كل ما كان يبدو منه أحيانا من غرور أو ثقة عالية بالنفس. لقد كان حقا يخطب بصوت جهورى ويطيل الخطاب، كما كان يبدو قادرا على الأمر والنهى، وعلى الغضب الشديد على معارضيه وعلى تهديدهم بابشع المصير. ولم يكن يظهر مبالاة شديدة برأى الناس فى بعض تصرفاته، ككثرة تنقلاته بين استراحاته العديدة، أو كثرة غيابه فى

إجازات، ومظاهر البذخ فى الإنفاق على حفلاته العامة والخاصة. وكان طلق اللسان فى التعبير عن ادق تفاصيل حياته، كما كان يبدو وكأنه يصدق بالفعل ما تطلقه عليه وسائل الإعلام الأجنبية من ثناء مبالغ فيه. ومع الاعتراف بكل ذلك فإنى أميل إلى الاعتقاد بأنه كان يعانى دائما من هذا الشعور المتأصل بالقصور والخوف. كان هذا يظهر فى علاقته بالأجانب أساسا، وحرصه المستمر على إبداء المودة لهم وترك انطباع حسن لديهم. ولكنه كان يظهر أيضا فى علاقته بعبد الناصر، بل وبصفة عامة فى علاقاته بمن يفوقه مركزا.

يظهر هذا أيضا من نوع العلاقات الوثيقة التى كونها أثناء توليه الرئاسة مع عدد من الشخصيات المصرية التى تميزت بالثراء أكثر مما تميزت بالثقافة، واشتهرت بالشطارة أكثر مما اشتهرت بالوطنية. كما قد يظهر من موقفه السلبى، أو على الأقل ما ساد من برود، على علاقته بكثير من شخصيات مصر الأقرب إلى نبض الشعب، والأكثر تعبيرا عن الشخصية المصرية. ولنضرب على ذلك مثلا واحدا يتعلق بالمقارنة بين موقف السادات من السيدة أم كلثوم وموقف عبد الناصر منها. لم يكن عبد الناصر، فيما يبدو، ممن يستمتعون كثيرا بالموسيقى والغناء، ولكنه فيما يظهر بجلاء، كان يدرك جيدا ما تمثله أم كلثوم لدى الشعب

المصرى والشعوب العربية الأخرى كانت بذاتها مؤسسة كاملة، وكان حب عبد الناصر أو تقديره لها انعكاسا فى رأيى لحبه لبلده وشعبه وأم كلثوم نشأت فلاحة مصرية صميمة، وبقيت كذلك رغم كل ما أحرزته من مجد، فقد ظلت مخلصة للتراث الموسيقى العربى وللغة العربية وللتقاليد المصرية المحافظة. ومن ثم قد يبدو من الغريب حقا ألا تنال أعلى درجات الاهتمام والحفاوة من الرئاسة فى عهد تمجيد «أخلاق القرية»، و«حماية القيم من العيب»، بل تصادف على العكس جفوة ممن ينادون بكل ذلك وينال الحظوة بدلا منها مطربون وممثلون يرطنون بالإنجليزية أو الفرنسية

من هذه الزاوية أيضا يمكن أن ننظر إلى مسلك السادات حينما وقف «يتبرأ» من البلاد العربية الأخرى، واصفا إياها بأنها «أقزام» مرة وبأنها «غير متحضرة» مرة، وينسب التحضر لمصر وإسرائيل، والغرب طبعا فهو عندما قال ذلك لم يكن فقط يعبر عن موقف سياسى الغرض منه تبرير خطوات التصالح مع إسرائيل، ولكنه كان يعبر عن موقف نفسى فهواه الحقيقى لا يجرى فى اتجاه العروبة، بل فى الاتجاه الغربى، ليس لأنه «غربى» بالطبيعة والثقافة، بل لعل العكس بالضبط هو الصحيح ولكن لأن هذا هو ما يحترمه حقيقة ويقدره، وانتماؤه العربى، كانتسابه للقرية المصرية، لم يكن فى الحقيقة مصدر فخار أو اعتزاز له، بل كان شيئا من الأفضل نسيانه والتخلص منه.

من كل هذا يتبين لنا إلى أى حد اختلط العام والخاص لدى أنور السادات فسواء تعلق الأمر بسياسته الاقتصادية فى الداخل، أو بموقفه من المعارضة، أو بعلاقاته العربية، أو بسياسته الخارجية تجاه الغرب وإسرائيل، كان أنور السادات بغير شك يتخذ مواقف على أعلى قدر من الأهمية من الناحية العامة، ولكنه كان أيضا يعبر عن دوافع شخصية تتلاءم تلاؤما تاما من مقتضيات تلك السياسة. ليس من الغريب إذن أن نجد من الصعب العثور على فترة من تاريخ مصر الحديث تختلط فيها النوازع الشخصية

للحاكم بالسياسة العامة للدولة كما نجد فى حقبة السادات.

نلاحظ هذا أيضا فى طريقة تعبير الحاكم عن كثير من إجراءاته ومواقفه. فهنرى كيسنجر وكارتر ، يجن وجيسكار ديستان ليسوا مجرد ساسة يعبرون عن مصالح دولهم، ولكنهم أيضا «أصدقاء أعزاء». وموقف السادات من حكومة الشاه وعائلته يقدم على أنه تعبير عن «وفاء» شخصى. وموقفه من بقايا الأسرة المالكية المصرية يفسر بأنه من دواعى «الشهامة». والجريرة الأساسية للمعارضة فى مصر هى أنها «حقود» أو «قليلة الأدب».

كذا نلاحظه أيضا فى إقحام الحياة الخاصة للرئيس على الحياة العامة فتفاصيل قصة حياته يجب أن يعرفها الجميع، وأعياد ميلاده لا يمكن أن ينسى موعدها. والشخصيات التى التقى بها فى حياته، أيا كانت درجة أهميتها، طالما أنها قد عبرت فى يوم ما طريق حياته، تصبح وكأنها شخصيات قومية.

وكما اختلط العام والخاص فى تصريحات السادات وخطبه وفى كثير من مواقفه السياسية، اختلط أيضا فى عصره المال العام بالمال الخاص بدرجة لم تعرفها مصر لمدة مائة عام مضت على الأقل. وإذا كان من الجائز أن يوجه النقد لعصر عبد الناصر لإفراطه فى إخضاع المال الخاص للسلطة العامة، فإن عصر السادات قد أفرط فى ترك المال العام نهبا للأطماع الخاصة. وليس مثل قضية عصمت السادات، شقيق الرئيس، إلا واحدا من الأمثلة المتداولة على السنة الناس منذ سنوات، للعدوان على أملاك الدولة وحقوقها. على أن الذى يعنينا التركيز عليه هنا هو الجانب النفسى لسلوك عصمت السادات بدوره. وهنا لابد أن يسترعى انتباهنا ودهشتنا كل هذا النهم الذى أصيب به الرجل. فشهوته ليس لها فيما يظهر أول يعرف أو آخر يوصف. فالممتلكات التى امتدت إليها تشمل الأرض الزراعية وأراضى البناء، والفيللات والعمارات، والمحال التجارية والمصانع والمخازن والورش، سيارات الركوب ولوريات النقل، ووكالات الاستيراد والتصدير والشركات السياسية

وشركات المقاولات، والشركات والعقارات تمتد من أقصى شمال الجمهورية إلى أقصى الجنوب، والزوجات مصرية ويونانية... إلخ

ليس الهدف فيما يبدو إذن هو مجرد الثراء، وإنما هو أقرب إلى أن يكون ظمأ لا يرتوى إلى كل ما يملكه الآخرون وإذا لم يكن قد أتيح لعصمت السادات أن يكتب هو الآخر كتابا «فى البحث عن الذات» فإن كتاب شقيقه يكفى على الأقل لإلقاء بعض الضوء على النشأة الأولى وعلى ما لابد أن يكون هو أيضا قد عاناه فى صباه على أن عصمت السادات لابد أن يكون قد واجه فى السنوات اللاحقة مشكلة أعوص زادت من شعوره بالمرارة وضاعفت من نهمه فقد فاجأه شقيقه الأكبر باعتلاء منصب رئيس الجمهورية وهو يعرف حدود أخيه واهتماماته الحقيقية، واتجاه ولائه. فإذا كان للشقيق الأكبر مثل هذا الحظ الواسع، ففى أى شىء تراه يفضله؟.. وإذا جاز للشقيق الأكبر أن يقول ما يشاء أن يقوله أمام جمهور لا يعرف الحقيقة، فكيف يجوز ذلك على الأخ الأصغر؟.

قد يفسر هذا، ذلك الموقف الغريب الذى اتخذه رئيس الجمهورية من مسلك شقيقه عندما أحيط به علما مرارا وتكرارا. فقد اقتصر على إصدار أوامر منعه من دخول الميناء، دون أن يتحقق حتى من تنفيذ القرار، أو بمنعه من مغادرة البلاد، بعد سنوات طويلة من تكرار الأعمال المخالفة للقانون والتى يتحدث عنها الناس جميعا، ثم الامتناع عن مقابلته. وهذه كلها ليست عقوبات بل هى أقرب إلى إشاحة الوجه عنه. فما الذى كان يشل يد رئيس الجمهورية عن اتخاذ إجراءات رادعة ضد شقيقه؟.. لا يمكن أن يكون السبب هو مجرد

علاقة الأخوة، فليس هناك شرع ولا حتى عاطفة تجبرك على أن تتحمل عدوان أخيك على أموال الناس العامة والخاصة وحتى إذا كان اعتقال الأخ قاسيا على النفس، فلماذا لم يوضع على الأقل حد لتصرفاته ولم يجبر على إعادة ما وضع عليه يده بغير حق؟.. إن الأقرب إلى التصديق هو أن يد رئيس الجمهورية السابق كانت مغلولة، إما لعلاقات شقيقه بعيدة المدى مع أشخاص لم يكن الرئيس يجرؤ على معاداتهم، أو لشعور بالعجز عن المواجهة لأسباب تتعلق بفهم كل منهما للآخر، أو بالأمرين معا.

لقد جاء فيما نشر من تحقيقات فى قضية عصمت السادات قوله «إن أخاه كان يحتقره» والقول لابد أن يحمل جزءا كبيرا من الحقيقة، لأسباب تتعلق مرة أخرى بشعور الأخ الكبير تجاه ظروف نشأته الأولى. فهو ليس احتقارا بقدر ما هو إصرار على النسيان والتملص من الماضى المرير وإذا كان هذا صحيحا، ويدر من الأخ الكبير ما يؤكد ضيقه وتبرمه من إلحاح الأخ الأصغر عليه بأن يشركه فيما هو فيه من نعيم، فإلى أين يتجه انتقام عصمت السادات ليس فقط من أخيه، بل من المجتمع برمته؟.. على أنه انتقام يصعب أن نصادف انتقاما أبشع منه، دفع ثمنه مجتمع كان من سوء طالعه أن اعتلى أريكة الحكم فيه رجل تغرض لهوان شديد فى صباه، وقضى بقية عمره «يبحث عن ذاته».

انتفاضة الخبز